اول مسافر اوربي في مكة

بقلم الاب لامنس اليسوعي

محرم شريعة الاسلام ، على غير المسلمين ان يدخلوا منطقتي مكة والمدينة ، وذلك تحت عقابات طائلة قد يكون من جملتها الاعدام . اما هذا التحريم فهو توسيع مبالغ فيه لما ورد في السورة التاسعة من القرآن وهو : « يا ايها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجدَ الحرامَ بعد عامهم هذا » (القرآن ٩ : ٢٩) ويجدر بنا ان نلاحظ ان القرآن لا يحظّر ذلك على « اهل الكتاب » بل على المشركين ، وانه لا يمنعهم الدخول الى مكة ، بل الاشتراك بالحجّ ومناسكه ، فاذا اتضح هذا قولنا ان المسلمين بالغوا في شرح هذه الآية . وفضلًا عن ذلك فان التاريخ يثبت انه كان لغير المسلمين ، في القرن الاول للهجرة ، مطلق الحرية ليس فقط بان يدخلوا المدينتين المقدّستين ، بل بان يقيموا بهما ما شاؤوا . واننا نرى فيها ، اذ ذاك ، كثير من اليهود والنصارى ، من تجار ، وموسيقيين ، واطباء ، ومهندسين ؛ وكان لهم مقبرة معروفة .

على ان هذه الحرية لم تدم مدةً طويلة ، فحُرّم دخول الحرمين منذ القرن الثاني للهجرة . ولكن لا يمكن القول ان هذه الشريعة لم يخرقها احد بعد القرن الثاني . فان من يجزم بأمر كهذا يبرهن عن جهل بقوّة الجاذبية التي يحدثها في عقول الفضوليين ، وهم دائمًا كثيرون ، كلُّ امر مجهول تكتنفه الاسرار . بيد انه ، وان كان عدد الشرقيين ، من غير المسلمين ، الذين عادوا من مكة سالمين ، لا يُستهان به ، فانه لا يمكننا القول نفسه عن مسافري اوربة ، وخصوصاً عن اولئك الذين تركوا في آثارهم ، وصف ما لاقوه في الحرَمين . فان عددهم لا يجاوز الخمسة عشر . يخرج منهم ثلاثة او اربعة لا نرى براهين كافية لتصديق مرويّاتهم . وقد كان آخر من زار الحرمين من مسافري اوربة الانكليزي الدون روتر الذي قام برحلة سنة ١٩٢٥—١٩٢٦ .

وقد وصف « مشرق » السنة الثانية (حزيران ، ص ٣٩٠) كتابه في ذلك . وان قلة من نجح من هؤلاء الرحالة في مثابرتهم الصعبة توضح اهتمامنا باول مسافر اوربي زار مكة والمدينة .

في اوائل القرن السادس عشر ، كان كريستوف كولومب قد اكتشف اميركة ، وكان ڤاسكو دي غاما قد دار حول رأس الرجاء الصالح وافتتح الطريق البحرية الى بلاد الهند العجيبة ، فكان الكثيرون يحلمون بكشف الجديد الغريب . في ذاك الزمن ، كان يعيش بمدينة بولونية في ايطالية رجل مغامر جريء يدعى لودوڤيكو دي ڤرتيما (Ludovico de Varthema) كان اقصى متمناه ان يزور البلاد الغريبة ، فيدرسها ، ويعرّفها لاهل اوربة .

ولما كان العالم الجديد قد اكتشف قبله ، حوّل نظره جهة الشرق ، وعزم على زيارة الجهات المجهولة في جزيرة العرب : المدينة ، ومكة ، وبلاد اليمن المدعوّة « بلاد العرب السعيدة » . ومن هناك عزم على ان يسير الى الهند ، فالى اجتياز اقصى الحدود التي كان وصل اليها الرحّالة قبله . هذا ملخّص الخطة التي وضعها لنفسه قبل السفر ، وقد قُيّض له ان يتمّم اكثرها . وبعد رجوعه الى وطنه نشر باللغة الايطالية وصفاً مطوّلاً لرحلته هذه ، [1] طبع مرّات عديدة وتُرجم الى اكثر اللغات الاوربية . اما المؤلف فلا نعرف عن حياته شيئاً يُذكر ، قبل قيامه بالرحلة ، الّا ما ذكرناه من اسمه ومدينته . بل نرجح انه كان في الثلاثين من عمره اذ ركب البحر من البندقية سنة ١٥٠٣ .

وبعد ان قام مدة قصيرة في القاهرة ، اقلع الى بلادنا ، فنزل في بيروت وقد أثّرت فيه عاصمتنا تأثيراً حسناً ، فوصفها « غنيّة بجميع المرافق ، يحيط بها البحر حتى تتكسر امواجه على اقدام اسوارها . » وقد ذكر فيها « الهيكل المقام على الموضع الذي قتل فيه القديس جرجس التنين ، ولكنه كان خراباً . » ثم سافر من بيروت الى حلب بطريق طرابلس . ولم يلبث ان رجع فدخل دمشق واقام فيها « أشهراً يتعلّم اللغة العربية . » اما ما حفظه من هذه اللغة

(١) P. Giudici, *Itinerario di Ludovico de Varthema*, Milano, 1928. وقد استندنا الى هذه الطبعة في النصوص التي نوردها .

فكان خصوصاً اللسان العامي كما تشهد التعابير الكثيرة التي يدخلها كتابه (في الصفحات ١٠٣ — ١٠٥ ، ١١٤ ، ١٢٢ ، ١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٤٢ - ١٤٤ الخ) ، والتي تدلّ دلالة واضحة على ان ذاك اللسان العامي لم يتغيّر منذئذٍ تغيّرًا يُذكر.

وكان ان عرف في دمشق باستعداد قافلة الحجّ للسفر - فخطر له ان يرافقها. وكان قد حصل صداقة بينه وبين قائد المماليك المكلّفين مرافقة الحجّاج وحراستهم والدفاع عنهم لدى هجمات البدو. فدفع رحّالتنا الى القائد المذكور «قيمة جسيمةً من الدراهم» فاعطاه هذا ثوباً من البسة المماليك الخاصة وسهّل له سائر معدّات السفر ، فغادرا دمشق مع القافلة في ٨ نيسان ١٥٠٣.

وكان عدد رجال القافلة «٤٠,٠٠٠ من الحجاج[1] وستّين من الحرّاس المماليك.» وقد سارت على الطريق المعروف «بدرب الحجّ» ، وهو الطريق الذي سار عليه منذ القديم حجّاج الحرمين من مسلمي سورية. ولم تخرج القافلة عن العادة القديمة ايضاً في محاربة البدو الذين ما فتئوا يطالبون بحقّ المرور ، وبثمن مياه آبارهم ، حتى حققوا ما قاله عنهم الحديث الذي يسميهم «سرّاق الحجيج». وعلى يومين او ثلاثة من المدينة الى شماليها وصلت القافلة ، على قول رحالتنا ، «الى جبل يسكنه نحو اربعة او خمسة آلاف يهودي. وهم تقريباً عراة ، صغار القامات ، اصواتهم كاصوات النساء ، لا يأكلون الّا لحوم الضأن. ويشهرون يهوديّتهم. واذا وقعوا الى القاء القبض على مسلم ، فانهم يسلخون جلده حيّاً.» (ص ٩٨)

فما هو ظننا بهذا الزعم؟ هل ردّد مسافرنا خرافة كان قد سمعها من الحجّاج ، وقد ازهقتهم مساوئ البدو فانتقموا منهم بان اتّهموهم باليهودية؟ ومهما يكن من الامر فان مؤلفي العرب ، في القرن الحادي عشر ، كالمقدسي مثلاً يشيرون الى وجود جوالي يهودية في وادي القُرى. والحال ان طرف هذا الوادي الجنوبي يقع على يومين او ثلاثة من المدينة ...

ثم اجتازت القافلة «بحر الرمل» ، اي النفود ، وقد هبّت عليهم عاصفة سموم. فكانت الريح تثير غمائم الرمال كثيفة حتى ان احدهم لم يكن يرى

1) قد يكون في هذا العدد بعض المبالغة.

رفيقه على عشر خطوات .

كان في اوربة خرافة مشهورة متداولة منذ القرون الوسطى ، مفادها ان «قبر محمد في المدينة معلق في الهواء بفضل جاذبية قطعة عظيمة من المغناطيس .» فكذّب ڤرتيما هذه الخرافة بلهجة لا تحتمل الردّ ، وقال: «لقد شاهدت قبر محمد في المدينة . وقد اقمنا فيها ثلاثة ايام فامكننا ان نزور كلّ شيء ..» (ص ٩٩) .

وفي خروجهم من المدينة ، تبعوا الطريق المارّة ببدر ، موقع المعركة الشهيرة ، فوصلوا الى مكة في ٤ ايار بعد ان ساروا اربعة اسابيع سيرًا شاقًا منذ خروجهم من دمشق . وقد وصف الرحالة مكة فقال : « انها مدينة غاية في الجمال ، كثيرة السكان ، تعدّ نحو ٦,٠٠٠ بيت . منازلها حسنة كمنازلنا . . . اما امير المدينة فهو من اسرة محمد ، متعلّق بسلطان مصر . وله ثلاثة اخوة لا يفتأون يحاربونه . واما البلاد المجاورة فكأنها وقعت عليها لعنة الله فهي لا تنبت شيئاً من العشب ولا من الشجر ، لكثرة احتياجها الى الماء . وكل الموادّ الغذائية تقريباً تأتيها من القاهرة . وقد شاهدنا من الحجّاج في مكة من أتوا للتجارة ، ومنهم من جاء لنيل مغفرة خطاياه . » (ص ١٠٩ . . .)

ثم يصف ڤرتيما الجامع الكبير فيقول : « هو هيكل جميل جدًا يذكر ببناء الكولوزي في رومية [1] ، وان لم يكن مبنيًا بمثل حجارته الجميلة ، بل هو مبني باللبن . وعلى بابه يقف باعة الحلي . وفي داخله ، تحت القناطر ، اربعة او خمسة من باعة الطيب . وهواء الجامع مثقل برائحة المسك وغيرها من العطور اللطيفة . وهو مكشوف صحن الدار ، وفي وسطه برج [هو الكعبة] مغطى بستار من الحرير الاسود . وعلى عارّ قامة الرجل ، باب من الفضة الخالصة (كذا) يدخل منه الى داخل البرج . وفي ٢٤ ايار ، منذ الصباح ، اخذ جميع الحاضرين يطوفون سبع مرّات حول البرج المذكور ، ويلمسون ويقبلون كل زاوية من زواياه . واذا سرت اثنتي عشرة خطوة من البرج رأيت بئرًا جيدة [هي زمزم] فيها ماء أجاج ، وحولها ستة او ثمانية رجال يستقون للشعب . فاذا اتمّ الحجاج طوافهم سبع مرّات ، اقبلوا نحو البئر ، فحنوا ظهورهم ،

١) هو المدرّج القديم في رومية . ولا نرى وجهًا للشبه بين الاثرين.

وقالوا: « بسم الله الرحمن الرحيم استغفر الله »[1] فيرمي الرجال المستقون على كل واحد منهم ثلاث دلاء فيغسلونه من رأسه الى قدميه .» (ص ١١٢—١١٤) .

ثم يصف رحلتنا ، ولكن بشيء من الغموض ، مناسك الحجّ في مزدلفة ، وعرفات ، ومنى . فيتكلم عن « تضحية عشرين الف خروف » ، وعن « خطبة دامت ساعة كاملة » ، وعن الجمرات . ثم بعد ان يعود الى مكة يذكر حمائم الحرم المشهورة ، فيقدّر ان عددها ٢٠,٠٠٠ حمامة ، ويقول : « يزعمون ان هذه الحمائم من نسل تلك الحمامة التي كلّمت محمداً بهيئة الروح القدس (كذا !) . وهذه الحمائم تطير بكل حرية في جميع انحاء المدينة ، فتدخل حوانيت القمح والارز وما شاكل من الحبوب . ولا يجرأ اصحاب الحوانيت على طردها . واذا بلغ عدم الاهتمام باحدهم الى ان يؤذيها ، فيكون اذ ذاك انتهاء العالم . واعلموا انهم ينفقون النفقات الباهظة لتغذية هذه الحمائم في الجامع الكبير » . (ص ١١٨)

وبعد ان اكتفى قرتيا من زيارة مكة ، فشاهد ما رآه ، اراد ان يتابع سفرته الى الهند . على ان صعوبةً شديدة كانت تعترضه ، وهي انه ، بانخراطه في سلك المماليك ، كان عليه ان يعود الى دمشق في حراسة القافلة السورية ، بعد انقضاء الحج . ولكنه تخلّص من ذلك بان اتفق مع احد اهالي مكة ، فاخفاه هذا في بيته الى ما بعد سفر القافلة بثلاثة ايام . فسار صاحبنا الى جدّه ، ميناء مكة ، فرأى فيها « منازل جميلة على طراز منازل ايطالية » ووصفها « مدينة فيها حركة تجارية مهمة . على ان كل انواع التجارات فيها بيد المسلمين لان دخولها محظور على النصارى واليهود . اما حاكمها فاخ الامير بركات ، شريف مكة . ولا تخرج البلاد شيئاً من المحصولات ، لان حاجتها الى الماء شديدة . وكلّ المواد الغذائية الضرورية تأتيها من القاهرة او اليمن او غيرها . والامراض فيها كثيرة يعزوها الجميع الى رداءة المناخ . وفي جدّة نحو ٥,٠٠٠ منزل . امّا المرفأ ففيه نحو مئة مركب بين كبير وصغير » . (ص ١٢٥)

ومن جدّة اقلع قرتيا الى اليمن فقام برحلات جديدة اوصلته الى جزائر الهند ، وليس علينا ان نرافقه اليها .

---

١) هكذا ورد في الكتاب بالحرف اللاتيني .